الشبهة السادسة

تأَخُّر تدوين السنة

هذه الشبهة يُعوِّل عليها منكرو السنة كثيراً فى تحقيق أغراضهم ضد السنة، لهذا تراهم يبالغون فى توظيفها للتهوين من منزلة السنة ، وكونها – عندهم – دخيلة على الإسلام ، وزيادة فى الدين ما أذن الله بها ؟!

فهم يقولون : لو كان أصحاب رسول الله ﷺ يرون للسنة أهمية في الدين، لعجلوا بجمعها وكتابتها كما صنعوا بالقرآن ، ولكن الصحابة أهملوها طيلة حياتهم وماتوا ولم تدون السنة فى عهدهم ، وإنما تولي تدوينها التابعون بعد مائتى سنة من بدء التقويم الهجرى بل إن تدوينها تم فى القرن الثالث الهجرى، عصر البخارى ومسلم وابن حنبل وغيرهم هكذا يقولون.

ويرتبون على هذا السؤال الآتى :

فهل لو كانت السنة ضرورة من ضروريات الدين كان الصحابة يهملونها هذات الإهمال ، وهل كان النبى يهمل تدوينها وهو يعلم أنها مصدر ثان بعد القرآن من مصادر التشريع الإسلامى ؟

هذا التساؤل ردده زنادقة العصر فى الصحف والمجلات فى النصف الأول من هذا العام : ١٩٩٩ م رددوه بصيغ مختلفة ، لكن المعنى والهدف واحد في جميعها ، هو حمل المسلمين على الشك فى السنة ، والتهوين من شأنها قولاً وعملا ؟!

تفنيد هذه الشبهة ونقضها :

هذه الشبهة مهما غالى المعاندون فى دلالتها على مرادهم منها ، فإنها أشبه ما تكون بسحابة صيف فى سماء صافية ، سرعان ما تنقشع .

ولنا فى تفنيد ونقد مرادهم منها عدة مسالك :

الأول : ليس صحيحا أن عصر صدر الإسلام خلا تماما من تدوين السنة ، إذ من المعلوم أن أجزاء من السنة تم تدوينها فى حياة الرسول نفسه ، وبتوجيه مباشر منه .

من ذلك كتبه ورسائله لرؤساء الشعوب وزعماء العشائر والاتفاقات والمعاهدات والتصالحات ، التى جرت فى حياة النبي عليه الصلاة والسلام ، وهي مجموعة الآن فى وثيقة قيمة، وبعضها مختوم بخاتمه ﷺ [ينظر: الوثائق السياسية للعهد النبوى والخلافة الراشدة . لمحمد حميد الله – دار النفائس] .

ولا ريب أن كل هذه الوثائق جانب من جوانب السنة فيه من هدى النبوة ما فيه .

كما تقدمت الإشارة إلي كتبه ﷺ إلى عماله ، وكان يذكر لهم فيها ما يعينهم على الفصل فى الخصومات التى ترفع اليهم فى ولاياتهم .

مثل أحكام الصدقات (الزكوات] والديات والميراث وبعض السنن .

وكما تقدمت الإشارة إلي صحيفة عبد الله بن عمرو بن العاص ، وصحيفة الإمام على ، وما كتب عام فتح مكة بأمر من النبى لأبى شاه اليمنى، فالقول بأن عصر النبوة خلا تماما من تدوين السنة قول فيه بعد عن الصواب .

إن الحق الذى لا محيد عنه أن عصر النبوة يوصف بقلة التدوين للحديث النبوى ، ولا يوصف بالخلو التام من تدوين الحديث .

وممن عُرِفُوا بكتابة الحديث فى صدر الإسلام الأول عبد الله بن عباس ، وسعيد بن جبير ، وابن هشام وغيرهم [ينظر : دفاع عن السنة ص ٢٢] . د/ محمد محمد أبو شهبة رحمه الله .

الثانى : أسباب قلة التدوين في العصر النبوى :

قلة التدوين للحديث النبوى فى حياة النبي ﷺ ، وما تلاه حتي نهاية القرن الأول الهجرى ، لها أسباب وجيهة تُعزى إليها .

ذلك أن رجال القرن الأول كانوا إما من الصحابة ، وإما من كبار التابعين (الطبقة الأولى) وكان هذا القرن يتميز بميزتين :

الأولى : أن سنة رسول الله – ﷺ – القولية كانت محفوظة في صدور الرجال ، حاضرة ماثلة فى ذاكرة الأمة . فلم تدع ضرورة إلى كتابتها وتدوينها .

الثانية : أن الصحابة الذين عاصرهم رجال الطبقة الأولى من كبار التابعين كانوا محيطين إحاطة كاملة بالسنة العملية ، يهتدون بها وبالسنة القولية دون الحاجة إلي الرجوع إلي كتاب مكتوب ، وربما كان الصحابة وكبار التابعين يتذاكرون هذه السنن فيما بينهم أو يسأل من جهل شيئا من السنن من هو عالم بها ، وكل هذا قام مقام التدوين فلم يُحْتَج إليه .

ويضاف إلي هاتين الميزتين ميزة ثالثة ، لا تقل عنهما قيمة وجلالا :

وهمى أن السنة خلال القرن الأول كانت صافية نقية محفوظة فى الصدور على الصورة التى سُمِعَتْ بها من فم النبي الطاهر .

صافية نقية من كل دخيل وعليل ومكذوب ، لأن هذه الآفات والقوادح ألمّت بالسنة في وقت متأخر عن القرن الأول – كما سيأتى – وفى ظروف وملابسات طارئة ما كان لها وجود فى القرن الأول الهجرى ، قرن الصفاء والنقاء.

هذه هى الأسباب في قلة تدوين السنة فى القرن الهجرى الأول تدوينا واسعًا، وليست أسبابها ما يروجه منكرو السنة زوراً وبهتانًا ، أن السنة ليست من الدين، فلم يهتم بتدوينها الرسول ﷺ ، ولا الخلفاء ، ولا جمهور الصحابة ؟! إن قولهم هذا تحريف شنيع لدلالات هذه الظاهرة وكما قيل : إن الإصرار على الخطأ مع يسر الوصول إلى الصواب أمر يدعو إلى الإتهام بسوء النية ، أكثر من الدعوة إلي مجرد الخطأ فى الاستدلال .

الثالث : تدوين السنة فى أول القرن الثانى :

من التهويل الممقوت أن منكرى السنة يدعون أن السنة دونت فى القرن الثالث الهجرى ، وقصدهم التأكيد على طول المدة التى أهمل فيها تدوين السنة توصلا للتشكيك فى صحة الرواية ، لبُعد ما بين التدوين وبين حياة الرسول التى قيلت أو حدثت فيها السنة القولية والعملية .

وهذا خطأ فاحش . لأن تدوين السنة بدأ مع بداية القرن الثانى الهجرى [عام ١٠١ هـ] في عهد الخليفة الراشد عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه .

فقد رأى هذا الإمام المسارعة إلى جمع السنة وكتابتها وتدوينها ، خشية أن يضيع منها شئ ، أو يلتبس الحق منها بالباطل من غيرها .

فكتب إلي بعض الراسخين من العلماء ، فى نهاية القرن الأول الهجرى ، وبداية القرن الثانى ، حسب مواقعهم من الأمصار الإسلامية .

روى الإمام مالك فى الموطأ أن عمر بن عبد العزيز كتب إلى أبى بكر بن محمد بن حزم : أن أنظر ما كان من حديث رسول الله ﷺ ،أو سننه ، أو حديث عمر ، أو نحو هذا فاكتبه ، فإنى خفت دروس العلم ، وذهاب العلماء .

وروى الإمام البخارى نحو ما رواه الإمام مالك رضى الله عنهما ، بعد توجيهات الخليفة الراشد الخامس ، عمر بن عبد العزيز بجمع الحديث النبوى ، بدأت حركة التدوين فى الاتساع وزال الأثر الذى كان عالقا فى النفوس من النهى عن كتابة الحديث ، والإقلال من الرواية فيه ، والتحدث به . واستقر الأمر على جواز الكتابة ، بل والحث عليها ، بل وجوب كتابته إذا خيف عليه النسيان والضياع [فتح البارى : جـ ١ ص ١٦٥] .

وشمر العلماء عن ساعد الجد ، ونشطوا فى جمع الحديث والسنن مع التثبت والنقد والتمحيص ، وبدأت ثمرة التشدد فى الرواية ، التى كانت فى عصر الخلفاء ، تظهر بكل وضوح بيد أن حركة التدوين فى هذه المرحلة كانت تجمع إلى الحديث النبوى أقوال الصحابة وفتاويهم ، وبعض أقوال كبار التابعين.

وفي القرن الثالث أضيفت دراسات وجهود جديدة فى التدوين ، فدونت الأحاديث والسنن النبوية فى أسفار خاصة بها ، مع الترتيب الدقيق ، واتسعت حركة النقد لأسانيد الحديث ومتونه ، والجرح والتعديل والتهذيب والاستدراك والاستخراج .

كل هذا كان يهدف إلي تنقية السنة من الدخيل والعليل والمكذوب على رسول الله ﷺ .

ولم يتوقف جهد العلماء فى خدمة السنة على القرن الثالث، بل أخذ جهدهم ينمو وينمو حتى القرن السابع الهجرى ، وفيه بلغت الجهود الحديثية درجة الكمال ، وأسفرت هذه الجهود المباركة عن الآتى :

● استجابة لدعوة الخليفة عمر بن عبد العزيز هب العلماء فى كل الأمصار الإسلامية على جمع السنة وتدوينها :

الإمام مالك فى المدينة ، وابن جريج بمكة ، والأوزاعى بالشام ، ومعمر بن راشد باليمن ، وابن عروبة ، وحماد بن سلمة بالبصرة ، وسفيان الثورى فى الكوفة، وعبد الله بن المبارك بخراسان ، وهشيم بن بشير بواسط ، وجرير بن عبد الحميد بالرى ، وغيرهم ، وغيرهم .

● تلت هذه المرحلة مرحلة أخرى أحكم وأدق ، خلال القرن الثالث الهجرى ، حيث قُصِرت كتب الحديث على رواية الحديث النبوى وحده ، وبرز خلال هذه المرحلة منهجان فى التدوين :

أولهما : منهج المسانيد ، وهو جمع أحاديث كل راوٍ فى مكان واحد مهما كان موضوع الحديث ومعناه . والمسند هو معجم صغير أو كبير يسرد مرويات الصحابى الواحد من أولها إلى آخرها .

ومن أشهرها مسند الإمام أحمد ، ومسند عثمان بن شيبة ومسند إسحاق ابن راهويه .

وهؤلاء جمعوا في مسانيدهم الصحيح والحسن والضعيف.

أما المنهج الثانى فعُنى بتدوين الحديث على حسب موضوع الحديث كأحاديث الصلاة ، وأحاديث الزكاة ، وأحاديث الجهاد ، وهكذا .

ومن أشهرها صحيحا البخارى ومسلم وغيرهما ، وهما قصرا عملهما على جمع الحديث الصحيح دون غيره .

فطريقة المسانيد تقوم علي وحدة الراوى ، والأخرى تقوم على وحدة

الموضوع، فالقول بأن السنة لم تدون إلا فى القرن الثالث خطأ متعمد ، وشأن السنة شأن غيرها من العلوم الإسلامية والعربية من حيث النشأة ، والتدوين ، وهي بالقياس إلى غيرها نرى تدوينها بدأ مبكراً ، وإن كان على نطاق ضيق فى أول الأمر ، ثم اتسع بمرور الأيام .

والقرآن نفسه ، وهو أصل أصول الإسلام ، لم يدون فى صحف فى حياة النبى ﷺ ، وإنما تم جمعه وتدوينه فى مصاحف فى خلافة أبى بكر ، باشارة من عمر رضى الله عنه ، وكان أبو بكر أولاً يمانع فى جمعه ويقول لعمر : كيف نفعل شيئا لم يفعله النبى ﷺ ، فما زال عمر بأبى بكر حتى أقنعه بجمع القرآن خشية ضياع شئ منه بسبب استشهاد الحفاظ فى الحروب .

ولما أرسل أبو بكر إلي زيد بن ثابت ، وكان من كتبة الوحى فى حياة النبى، قال زيد لأبى بكر ما قاله أبو بكر لعمر من قبل :

« كيف تفعلون شيئًا لم يفعله النبى ﷺ ؟ وما زال أبو بكر بزيد حتى أقنعه بجمع القرآن . ثم قال زيد : « والله لو كلفنى – يعنى أبا بكر – نقل جبل أحد ، أو نقل جبل من الجبال ما كان أثقل علىَّ مما أمرنى به من جمع القرآن . [ينظر صحيح البخارى : كتاب فضائل القرآن] .

فإذا كان هذا هو موقفهم من القرآن ، وهو أصل الملة ، فكيف يتخذ منكرو السنة من بطء تدوين السنة قدحًا فى منزلة السنة نفسها ؟ فهلا اتخذوا من عدم تدوين القرآن فى صحف فى حياة النبى ، ومعارضة أبى بكر وزيد لجمعه وتدوينه وسيلة للحط من منزلة القرآن ، وأنه ليس من الدين ؟ فما لهؤلاء القوم لا يكادون يفقهون حديثا، لقد كانت الدولة الإسلامية فى صدر الإسلام الأول فى مرحلة النشأة والنمو ، فكان لابد من أن تمر بتجارب تعمل فيها عقلها وفكرها ، فمن مؤيد ، ومن معارض ، ولكن بعد تمحيص القول وظهور الصواب من الخطأ، فإن قادة الدولة ورجالها كانوا يُعرضون عن الخطأ ويولون وجوههم نحو الصواب بلا ارتذاد أو انتكاس .

وحركة التدوين – عموما – بدأت لمحات خاطفة فى كل المعارف والعلوم ، ثم استوت على سوقها بمرور الأيام والليالى، حتى صارت صروحا شامخة ، أصلها ثابت وفرعها فى السماء .

هذه خلاصة ردنا على هذه الشبهة ، والقارئ يدرك أننا لم نحد عن الصواب فى الرد عليهم ، فوجه الحق فى هذه المسألة ظاهر ظهور الشمس . ثابت ثبات الجبال الرواسى، أما منكرو السنة فإن مطيتهم العناد والمكابرة ، وكل امرئ بما كسب رهين .

وهلاَّ سألوا أنفسهم: لماذا تأخر تدوين كتب التفسير، والفقه واصوله، وعلوم اللغة، والسيرة والتاريخ . . إلخ؟! إنهم – بذلك – يتنكبون سواء الصراط ويتجاهلون أو يجهلون سنن الحياة، وتطور المعارف والعلوم، الذى لم يخل منه عصر من العصور، حتى يوم الناس هذا.

* * *